مؤتمر اقطاب المعارضة العراقية في دمشق

تأكيد لدور ايران المركزي في مستقبل العراق

في اذار قبل خمس سنوات، عقد اول مؤتمر للمعارضة العراقية في بيروت بعد حرب الخليج الثانية، شارك فيه اكثر من مائتي شخصية من مختلف القوى والشخصيات العراقية السياسية المعارضة في وقت كانت الامال كبيرة بقرب سقوط النظام الحاكم في بغداد. وفي حينها نقلت الطائرات السعودية وفودا عراقية (المجلس العراقي الحر بزعامة سعد صالح جبر، وجماعة الوفاق بزعامة صلاح عمر العلي) الى دمشق وساومت السعودية الراعي السوري على مشاركتهم في قيادة المؤتمر، بما كرس المشاركة السعودية في قيادة المعارضة العراقية.

اليوم وبعد خمس سنوات تلتقي قيادات ابرز الفصائل العراقية المعارضة، في مؤتمر تداولي لأقطاب المعارضة العراقية يعقد في دمشق، ولكن بفارق جوهري هو: حلول ايران محل السعودية في رعاية المؤتمر، وغياب اي طرف عراقي محسوب على السعودية.

ان طهران ودمشق تصران ان يكون المؤتمر، لقاء لاقطاب المعارضة العراقية: السيد محمد باقر الحكيم (المجلس الاعلى للثورة الاسلامية في العراق)، محمد الاصفي او من يمثله مباشرة في قادة حزب الدعوة الاسلامية، السيد محمد تقي المدرسي عن منظمة العمل الاسلامي، وعن الحركة الكردية المسلحة، جلال الطالباني ومسعود البرزاني، وعن التيار القومي يشارك اقطاب البعث السوري وحلفائهم من احزاب التيار القومي العربي. اضافة الى مشاركة سكرتير الحزب الشيوعي العراقي السيد حميد مجيد موسى، الموجود في كردستان العراق.

واعتبرت مشاركة هذه الاسماء تمثيلا للتيارات السياسية العراقية الرئيسية: الاسلامي، القومي العربي، القومي الكردي، الديمقراطي.

ان مشاركة القيادات الكردية الرئسية، ناهيك عن القوى الاسلامية الشيعية، في لقاء الاقطاب ما كان له ان يتم دون ضغط ايران، وبالتالي ما كان للمؤتمر الذي تريد سورية عقده لمواجهة الدور الاردني الجديد ان يعقد بدون رعاية ايران، الامر الذي يبرز تصاعد الدور الايراني في الشأن العراقي.

كان النفوذ الايراني في العراق قبل غزو الكويت ضئيلا لحد التلاشي، نتيجة الحرب العراقية الايرانية من جهة وسياسة النظام القمعية من جهة اخرى، التي عملت على تصفية الوجود السياسي والبشري للتيار الاسلامي الشيعي عن طريق الاضطهاد والتطهير العرقي باسم تهجير العراقيين من التبعية الايرانية.

ولكن اليوم بعد خمس سنوات على حرب الخليج الثانية يعود النفوذ الايراني ليصبح الاقوى في العراق، بما يجعل من الرقم الايراني ضرورة في اي معادلة سياسية للتغيير في العراق.

استطاعت ايران التي لها حدود تزيد عن اربعمائة كيلومتر مع كردستان العراق، ان تكرس نفوذها السياسي مع كلا الطرفين الكرديين، الاتحاد الوطني والديمقراطي الكردستاني، مستفيدة من صراعهما مما جعل من طهران الطرف المرجح والوسيط بآن واحد.

فعندما اشتعل القتال بين الحزبين الكرديين الرئيسيين في ايار 1994، انحازت ايران لصالح البارزاني، وفيما بعد دعمت ايران الحركة الاسلامية الكردية في قتالها ضد جلال الطالباني في حلبجة مكبدة قوات الاتحاد خسائر حاسمة، وفرضت حصارا على منطقة جلال الطالباني، الامر الذي اقنع الاخير بضرورة أرضاء ايران اذا اراد البقاء كقوة فاعلة في كردستان.

كان ثمن الرضا الايراني هو تخلي جلال الطالباني عن حلفائه التقليديين، الحزب الديمقراطي الكردستاني الايراني- جماعة قاسملو، حيث ابعدهم عن الحدود الايرانية الى اكثر من خمسين كيلومتر واغلق اذاعتهم الموجهة لاكراد ايران، وأمن الحدود الايرانية من اي نشاط كردي معاد للجمهورية الاسلامية، وفتح المدن والقصبات الكردية امام نشاط الحرس الثوري ومكاتب الهلال الاحمر الايراني.

اراد مسعود البارزاني معادلة التأييد الايراني لجلال الطالباني بالانحياز لتركيا اثناء دورة الصراع الدموي بين الاثنين في عام 1995، ولكن دون نجاح يذكر خاصة بعد سيطرة الطالباني على عاصمة اقليم كردستان، اربيل. ومازاد وضع البارزاني تعقيدا هو اصرار الاتراك على ان يلعب البارزاني دور الشرطي في قمع حزب العمال الكردستاني بقيادة عبد الله اوجلان، وفي دفعه نحو التعامل الايجابي مع بغداد. كل هذا دفع البارزاني الى اعادة الصفاء لعلاقاته مع ايران التي قام بزيارتها اكثر من مرة، وكان اخرها في اذار الماضي.

ان تنافس الحزبين الكرديين في كسب رضا ايران غدا واضحا عند استقبالهما لممثل ايران السيد أغا محمدي في مطلع العام الحالي في كردستان حيث القى كلمة من بناية البرلمان الكردي في اربيل امام حشد يزيد عن ستة الاف كردي، كل ذلك في وقت كان ممثلو الولايات المتحدة وبريطانيا وحتى اسرائيل موجودين في كردستان العراق.

لقد كرس الصراع الكردي الكردي، وغياب الوجود العسكري المباشر لاية قوة اخرى، ايران كطرف حاسم في كردستان يملك مفتاح الحرب والسلام في كردستان العراق.

من المفارقات ان يعود الفضل في نجاح ايران الى سياسة امريكا في خلق منطقة امنة في شمال العراق دون استعدادها للتواجد على الارض وتحمل تبعات ادارة الصراع فيها، وهكذا خسرت امريكا في كردستان ما ارادت كسبه من خلال سياسية الاحتواء لايران.

ان اصرار الولايات المتحدة على رفض التعامل مع ايران وعزلها دفع الاخيرة الى فتح جبهات اخرى لنشاطها الاقتصادي والدبلوماسي وهذا ماحققته بشكل ملموس في جمهوريات اسيا الوسطى الاسلامية، فقد اثرت السكوت على مجازر الشيشان مقابل تعاون روسيا الاقتصادي والدبلوماسي، كما لعبت دورا ايجابيا لايجاد تسوية للخلافات القائمة بين ارمينيا واذربيجيان.

ويبدو ان ايران تريد توظيف نجاحها (في الوقت الذي فشلت فيه امريكا وتركيا) في وقف القتال بين الطالباني والبارزاني و بين الاخير وعبد الله اوجلان، للتدليل على دورها الضروري في كردستان العراق بمايدفع امريكا لمراجعة مقاطعتها لها.

وما قد يفسر عدم استعجال ايران للتغيير في العراق هو ان الزمن ليس لصالح صدام حسين او اي طرف اقليمي اخر، بل ان استمرار حالة الضعف والشلل العراقي بوجود صدام حسين حاكما ضعيفا، يعطي ايران مزيدا من الوقت لتوسيع رقعة نفوذها في العراق، ذلك النفوذ الذي يهم ايران ان يوظف لصالح فتح ابواب الحوار مع الولايات المتحدة وانهاء الاحتواء الامريكي لايران.

ان استمرار حالة "الشلل" العراقية المتمثلة ببقاء النظام الحالي ضعيفا محاصرا، دون تأهيله او اسقاطه، اعطت ايران فرصة لتكريس نفوذها لا بين اوساط العراقيين المهجرين في ايران والمنطقة الجنوبية الشيعية فحسب، بل في شمال العراق كذلك.

ان ورقة الجنوب اللبناني على ضعفها اعطت ايران بعدا اقليميا ودوليا، فكيف الحال اذا استطاعت ايران ان تكسب ورقة العراق في لعبة الصراع الاقليمي والدولي؟

ان عقد مؤتمر لاقطاب المعارضة الرئسية في دمشق، برعاية ايران وسورية المشتركة، سيكون فرصة ايران للتدليل على مركزية دورها لا على صعيد كردستان العراق فحسب بل بالنسبة لكل العراق، ومن هنا يمكننا ان نفهم الضغط الايراني على قادة الاكراد للمشاركة في هذا المؤتمر رغم تحفظاتهم العديدة.

ولكن صيغة الاجتماع التداولي المقترح للمعارضة في دمشق قائمة على لقاء زعماء التيارات الرئيسية -الاسلامي، القومي العربي والكردي، والديمقراطي- بما منع مشاركة العناصر المنشقة حديثا عن نظام صدام حسين، امثال وفيق السامرائي وصلاح عمر العلي ومشعان الجبوري في صياغة جدول اعمال المؤتمر الموسع المقترح، كما اسقطت ذات الصيغة مشاركة زعامة المؤتمر الوطني العراقي الموحد (السيد محمد بحر العلوم، د. احمد الجلبي، حسن النقيب)، الامر الذي سيترك شعورا سلبيا، بدون شك، لدى المستبعدين، وهذا ماتؤكده بيانات وتصريحات العديد من الشخصيات والقوى، خاصة وان ممثلي الطرف القومي العربي، غير البعثي، ينافسه الكثيرون على شرعية تمثيل التيار القومي العربي. كذلك الحال بالنسبة للتيار الاسلامي السني والتيار الليبرالي الديمقراطي الذين غيبا عن الاجتماع.

هذا لايقلل من اهمية جمع القيادات الاسلامية الشيعية والكردية والقومية العربية، الذي هو بحد ذاته نجاحا لايران وسورية. ولكن هذا النجاح يتحول الى فشل اذا انتهى المؤتمر في اذهان الناس، الى مجرد لقاء عراقي شيعي كردي برعاية ايران وسورية لتحقيق اهداف سياسية تخص البلدين اكثر مما تخص التغيير في العراق، الامر الذي سيضر حتما بمصداقية البلدين ناهيك عن الاطراف المشاركة.

ان قياس نجاح المؤتمر التداولي لاقطاب المعارضة العراقية في دمشق بالنسبة لايران يتمثل بالأتي:

اولا: في قدرتها على جمع هذه الرموز القيادية في اجتماع واحد الامر الذي لايمكن لاية دولة عربية تحقيقه بمفردها او مجتمعة.

وثانيا: في توصل المجتمعين الى اقرار تشكيل قيادة ميدانية سياسية وعسكرية للعمل للاطاحة بالنظام العراقي، بما يمنح قوات بدر التابعة للمجلس الاعلى بزعامة السيد باقر الحكيم حق التواجد في شمال العراق، الامر الذي يعطي ايران ذراعا عسكريا فاعلا في الشمال العراقي اضافة الى جنوبه، بما يكرس ايران طرفا حاسما وضروري في اي معادلة للتطبيع او للتغيير في العراق، انطلاقا من قاعدة من يملك الارض يملك القرار السياسي.

واخيرا، في تبني آلية تنفيذية، قد تكون على شكل مؤتمر عام، يسمح بمشاركة اكبر عدد من الشخصيات والقوى السياسية العراقية المعارضة لايجعل العداء للاردن او امريكا معيارا للمشاركة فيه.

اما على الصعيد السوري، فان عقد المؤتمر يعيد لسورية بعضا مما فقدته من دور على الصعيد العراقي حيث كانت في مطلع التسعينات تملك معظم اوراق المعارضة العراقية والتي سرعان ماخرجت من يدها الى مؤتمر فيينا وصلاح الدين واخيرا عمان وانقرة.

ان المؤتمر يعطي التحالف السوري-الايراني فرصة لاثبات دوره في حفظ السلام في كردستان العراق، وامكانياته في عملية التغيير في العراق، ولكن الاهم من ذلك تقديم البديل المقبول اقليميا ودوليا لنظام صدام. هذا برأيي، هو معيار النجاح وبالتالي احترام الاخرين، اما ان يوظف المؤتمر للهجوم على الاردن، وامريكا، فهذا استخفاف بالمشاركين والهاء لهم عن مسؤوليتهم الحقيقية في اطعام شعبهم وانقاذ بلدهم.

ان سورية وايران يعرفان جيدا ان هناك خطوطا حمراء لايمكن ان تسمح الولايات المتحدة التي تملك ورقة الحصار بتجاوزها، الا وهي انفراد سورية او ايران في عملية التغيير في العراق. وان سورية التي هي بامس الحاجة للوسيط الامريكي في عملية التفاوض مع اسرائيل لايمكن ان تكون في وارد المواجهة مع واشنطن، علما ان هذا الهاجس كان وراء استعداد دمشق الى تهدئة جبهة الجنوب اللبناني بالتعاون مع ايران.

ان نجاح كل من ايران وسورية يتمثل في توظيف المؤتمر الى اثبات اهمية دورهما بالنسبة لدول الجوار والغرب في عملية ضبط الامور في العراق وكردستان بالذات، وانه بدون مشاركتهما يصعب تغيير النظام العراقي او ضبطه في حال سقوطه، الامر الذي يجعل من مشاركتهما في اي صفقة اقليمية تخص العراق امراً ضروريا.

اما على صعيد المعارضة العراقية، فرغم حقيقة النفوذ الايراني والسوري بحكم الجغرافيا، الا ان المسؤولية الوطنية والمصلحة الذاتية المستنيرة تفرض على الطرفين الكردي والاسلامي بالذات، ان لايندفعا باتجاه تقسيم المعارضة العراقية الى محاور تأكل بعضها البعض الاخر، او ان تصبح اداة لتصفية حسابات اقليمية ودولية خارجة عن الشأن العراقي. ان انفتاح قادة المؤتمر على بعضهم وبالتالي على الاخرين من قوى وشخصيات المعارضة المغيبة هو معيار نجاحهم في تقديم البديل المقبول للنظام القائم.

ان المرجعية الوطنية العراقية لايمكن خلقها او فرضها بالسلاح او بقوة الاعلام والمال، بل لابد من نضال لكسب ثقة الناس، ولقاء دمشق هو فرصة المتصدرين لهذه المسؤولية لكسب احترام ابناء شعبنا العراقي. ان مثل هذه المرجعية هي الكفيلة بغلق دكاكين الارتزاق السياسي على حساب مصائب ومعاناة شعبنا.

(الملف العراقي، العدد 52 - نيسان 1996)

❋ ❋ ❋